أ.محمود وتد

تخطيط وحدة تعلّميّة في قصّة الصبيّ الأعرج

للأديب توفيق يوسف عوّاد

كان اسمه خليل. ولكنّ الناس لا يعرفونه بهذا الاسم. هم يسمّونه الأعرج، حتّى كاد ينسى هو نفسه اسمه الحقيقيّ.

ولا أحد يعرف من أبوه وأمه وأين مسكنه. نكرة من النكرات، شحّاذ من ملاعين الدنيا، قذفته الحياة قذفًا، كالمارّ على رصيف يبصق بصقة ثم يدوسها ويتابع الطريق.

في الثالثة عشرة من عمره، على وجهه بقع من الغبار المزمن، وأخاديد من الذلّ. يجرّ، طول النهار وقسمًا كبيرًا من الليل، رجله العوجاء من مكان إلى مكان. الرجل اليمين مفتولة عند الركبة إلى الوراء يدوس بها الأرض على إبهامه، والإبهام ضخمة شققّها المشي على الحصى، وعشّش بين شقوقها وحل الشتاء الماضي.

كلّما خطا خطوة اندفع رأسه إلى الأمام وراء العرجة اندفاعة تكاد تخلع رأسه من بين كتفيه. وهو مضطّر إلى الدوران في الشوارع، من شارع إلى شارع، ومن دكّان إلى دكّان، من رجل إلى رجل، ومن امرأة إلى امرأة، ويمدّ كفّه ويبتسم ابتسامته الباكية.

رفاقه الشحّاذون، صغارًا وكبارًا، لكلّ واحد منهم أغنية يردّدها على المحسنين. يطلبون من الله أن يطوّل لهم عمرهم، أن يخلّي لهم عافيتهم، أن يعوّض عليهم، أن يرزق المرأة ولدًا والفتاة عريسًا، وأن يكافئهم خيرًا في الآخرة. يثرثرون دائما، ويلصقون بالمحسنين لصقًا، فلا ينزعهم الاّ القرش.

أمّا هو فلا يجيد الثرثرة بل يبقى صامتًا كالأخرس. لولا ابتسامته الحزينة، ولولا عيناه الناطقتان بألف لغز ولغز من ألغاز الطفولة المقهورة، ولولا يده الممتدّة، الراجفة، الممصوصة كورقة الخريف، لولا ذلك لظنّه الناس صنمًا.

والبشر يحبّون الثرثرة، يحبّون الدعاء، لا يعطون الصدقة إلّا بثمنها عدًّا ونقدًا. ولكنّ الأعرج لا تتحرّك له شفتان بدعاء ولا رجاء، كأنّما في قلبه إيمان بأنّ له على هؤلاء البشر ضريبة. يمدّ كفّه إلى واحد، ثمّ يجوز إلى غيره جارًّا رجله العوجاء. وإذا ظفر بقرش أو نصف قرش حدّق إليه وقلّبه ثم وضعه في جيب قمبازه القذر المرقّع، ومشى.

* * * *

في حيّ فرن الشبّاك، على مسافة ربع ساعة من مشية خليل العرجاء، كوخ حقير جدرانه من أخشاب صناديق الكاز، وماركات الشركات ما تزال محفورة عليها بالأحمر والأزرق والأسود، بعضها محفوظ سالم، والبعض الآخر أكلت ثلاثة أرباعه السنون. وللكوخ سقف من تنك الكاز أيضًا، وللتنكات قهقهة ساخرة عندما تهبّ الرياح، وبينها ثقوب ينزل فيها المطر فيحوّل الكوخ في الشتاء إلى مستنقع.

هذه القطرات من المطر هي كلّ ما تذكر به السماء ساكني الكوخ !

لأنّ الأعرج ليس وحده فيه، بل هو تحت حماية العمّ إبراهيم. شحّاد متقاعد، بين الخمسين والخامسة والخمسين من عمره، كسيح، مقصوف الظهر، ملتوي الذقن إلى الشمال، بارز الأسنان – كتلة من الخرق والعظام المحطّمة ملقاة في زاوية الكوخ.

كان الليل قد أظلم، وأقفرت طريق فرن الشبّاك إلّا من بعض الترامواي‌ات ينعس فيها ركّابها القليلون، وتمرّ على الخطّ مسرعة، محدثة عليه شررًا متطايرًا وأزيزًا موجعًا. وكان الأعرج يمشي على حافة الطريق مسرورا ببساط الغبار لا يؤذي رجله العوجاء التي تتلقّى وطأة جسمه دون الأخرى. كلّما تقدّم ضاعف قلبه دقّاته، لأنّ العمّ إبراهيم رجل قاس لا يعرف الرحمة، يحبّ أن ترجع يده من يد الأعرج بخمسين قرشًا كلّ مساء. وكان الصبيّ يحسب القروش التي جمعها طول نهاره فلا تبلغ إلّا سبعة وعشرين قرشًا، فيزيد خوفه وترتعد فرائصه.

وأبى الأعرج أن يصدّق حساب النهار الذي كان قد قام به أكثر من عشر مرّات. فلمّا وصل تحت المصباح الكهربائيّ المعلّق على المحطّة الأخيرة من محطّات الترامواي أخرج القروش من جيبه وأخذ يعدّها مرة أخرى، فإذا هي سبعة وعشرون قرشًا، لم تزد شيئًا قطّ! فأعادها إلى مكانها وهو يرفّ بعينيه وقد همّتا بالبكاء، وواصل مشيته ببطء كأنّه يقدّم رجلًا ويؤخّر الثانية.

كان عليه أن يصل. استقبله العمّ إبراهيم، حسب العادة. وراء قنديل الزيت الضئيل المتماوجة أظلاله على جدران الكوخ، قائلًا :

- تعال هنا، هات الحساب !

كان العمّ إبراهيم على طرّاحته في الزاوية، مسمّرا عليها، لا يستطيع حراكًا إلّا بيديه فهما له رجلان أيضًا. فحمل الأعرج القنديل وجاء به فركع أمام الطرّاحة، وأخذ يعدّ القروش واحدًا وراء واحد، ويفتّش في قعر جيبه وينفضها ليؤخّر غضب العمّ إبراهيم. ولكّن العمّ إبراهيم كان واقفًا على كلّ حركة وسكنة من الصبيّ، فأرسل إليه نظرة من عينيه الحمراوين الملتهبتين وصاح به :

- سبعة وعشرون قرشًا من أوّل النهار إلى آخره! أنت تلعب كلّ الوقت يا أعرج الملعون. لك ثلاث عشرون عصًا. حساب مضبوط.

وكشّر، ولوى ذقنه إلى الشمال فوق ما لواه الله، ولبث منتظرًا الأعرج. كان الأعرج يعرف ما يجب عمله في مثل هذه الحال: كلّ قرش ينقص عن الخمسين بعصًا. والعصا معلّقة في الحائط. فنهض من ركعته ودنا من الحائط، وجاء بالعصا فسلّمها إلى العمّ إبراهيم ووقف أمامه مكتوف اليدين. فرفع الجلّاد عصاه السوداء السمينة، وطفق يضرب بها الأعرج ضربًا له نظام: ضربة على الكتف اليمنى، وثانية على اليسرى، وأخرى على القفا، ورابعة وخامسة على الرجل العوجاء. والأعرج يعدّ العصيّ بصوت عال: واحد، إثنان، ثلاثة...خمسة...تسعة، وهو يخنق الصراخ خنقًا. فإذا صرخ ضوعف له العقاب. والدموع تسيل على خدّيه، وخدّاه يتجعّدان، وعيناه تتواريان وراء صور الألم المرتسمة على وجهه، وفمه يندلق، ودمه يفور في أوداجه ويوشك أن يفتّقها تفتيقًا.

وهو ما يزال في الضربة العاشرة من الحساب! وعبثًا أن يحاول إقناع عمّه بأنّ الناس لا يدفعون. عبثًا كان يقول له إنّهم يعطونه كسر الخبز... إنّ العمّ إبراهيم كان يجيبه: اضرب بالرغيف من يعطيك إيّاه على وجهه!

* * * *

ذات يوم رجع الأعرج إلى الكوخ مطرودًا من الشوارع بمفاجأة عظيمة: كانت الحكومة قد سنّت قانونًا يمنع التسوّل! فلقيه شرطيّ وصفقه بالسوط على قفاه، فلم توجعه الضربة لأنّه معتاد أشدّ منها من عصا العمّ إبراهيم، ولكّن الوجع كان في نفسه.

ممنوع!... ممنوع مدّ الأيدي من الآن وصاعدًا! ممنوع طرق الأبواب، وإيقاف المّارّة، والدعاء بطول الأعمار.

لماذا؟

سؤال هائل ارتسم على وجه الأعرج الصغير، لا يعرف له جوابًا. كلّ ما كان يعرف من هذه الحياة أنّ عليه الرجوع كلّ مساء بخمسين قرشًا يسلّمها إلى العمّ إبراهيم. أفاق على نفسه على هذا الشكل من الحياة. وعلى الرغم من العذاب الذي يلاقيه فهو يتمنّى أن تدوم الحال على ما هي. وها هي لا تريد أن تدوم. ها هو يرجع إلى الكوخ بقرشين إثنين. ها هو ذاهب لثمان وأربعين عصًا تسلخ جلده... وغدًا، وبعد غد خمسون عصا! كلّ يوم خمسون عصًا! يا الله، هذا شيء كثير.

هذه المرّة قعد الأعرج على حافة الطريق يبكي ويشهق، والناس يمّرون مشاة، وفي السيّارات والتراموايات، لا أحد يلتفت إليه أو يسمع نحيبه... جثّة قطّ أو قشرة ليمون.

على أنّ العمّ إبراهيم كان مطّلعًا على كلّ شيء. ولمّا عاد الصبيّ إلى الكوخ سامحه بالثماني والأربعين عصًا. وشدّ ما كانت دهشته عندما أدناه اليه وأمسك برأسه ومسح جبينه بشاربيه... ولم يكتف بذلك بل قدّم إليه عشاءه بيده: علبة سردين – كلّها له – ورغيفًا. ثمّ ربّت على كتفه وقال له: ستكون بعد اليوم تاجرًا، كما تريد الحكومة. وقهقه عاليًا. أمّا هو فلم يفهم وظلّ مشدوها مسرورًا لأنّ العصا باقية في مكانها معّلقة. وكان لا يجسر على النظر اليها، بل يجوّل وجهه عنها لئلا يذكّر العمّ إبراهيم أنّها هنا.

وأصبح الأعرج تاجرًا. لقّنه العمّ إبراهيم كلّ شيء. اشترى له صندوقة ودلّه على دكّان حلويات في حيّ الناصرة، وأوصاه أن يملأ من الدكّان كلّ صباح صندوقته هذه بقطع الكاتو، ويدور في المدينة تاجرًا.

وكانت الصندوقة تستوعب أربع دزّينات: ثماني وأربعين قطعة. يشتري الواحدة بقرش ونصف، ويبعها بقرشين ونصف.

ارتاح الأعرج إلى شكل حياته الجديد بادىء ذي بدء، وحمل الصندوقة على خصره مربوطة إلى عنقه بحزام من جلد لمّاع، وأخذ يدور في الشوارع مناديًا بصوته الضعيف: كاتو! كاتو!

ولكنّ العمّ إبراهيم أوصاه بوجوب بيع الثماني والأربعين قطعة كلّها. ولمّا انقضى نصف النهار ورأى الأعرج أنّه لم يبع إلاّ سبع قطع حطّ صندوقته على رصيف شارع المعرض وأحسّ بحاجة جديدة إلى البكاء. ماذا يقول له العمّ إبراهيم إذا بقي شيء من الكاتو؟ أتكون كلّ قطعة باقية بعصًا؟ يا ليت! إنّ القرش من زمان، إذا نقص، كان بعصًا. وثمن كلّ قطعة قرش ونصف... هذا إذا حاسبه العمّ إبراهيم على سعر الشراء، أمّا سعر البيع؟

على أنّ القدر كان يخبّىء للأعرج –لبصقة الحياة على الرصيف– أشدّ ممّا كان يتوقّع. فلمّا أظلم الليل، وهمّ بالرجوع إلى الكوخ، دنا منه وراء المدرسة اللعازاريّة، في ذلك الطريق الموحش، ثلاثة صبيان، الكبير فيهم من سنّه. وما كاد يراهم مقبلين نحوه حتّى ارتعد، كأنّ إلهامًا نزل عليه بأنّهم يريدون به شرًّا. وكانوا يغنّون ويلّوحون بأيديهم في الفضاء، وزعيمهم ذو القمباز الطويل ينفخ بأنفه كالحيوان.

وقف الأعرج على رجله الصحيحة، وأدار وجه صندوقته إلى حائط المدرسة، وانتظر. فتقدّم الزعيم ونظر يمينًا وشمالاً، ولمّا تيقّن من أنّ أحدًا لا يراه صفع التاجر الصغير على وجهه صفعة طاش لها دماغه في رأسه، وهجم الثلاثة على الصندوقة، فنهبوا أكثر ما فيها وأطلقوا سيقانهم للريح، يزدردون الحلويات ويقهقهون.

وحينما عاد الأعرج في المساء إلى الكوخ نال نصيبه أربعًا وثلاثين عصًا: حسابًا مضبوطًا على سعر البيع... كما حدّثه قلبه في الطريق.

اسودّت الدنيا في عينيه. لأنّ الرواية كانت تتكرّر كلّ يوم، وصبيان الشوارع المشرّدون في بيروت كثيرون ينازعون الكلب على عظمته، فكيف بقطع الكاتو اللذيذة!... ما يكاد يراهم عن بعد حتّى يأخذ في الركض. ويالها من ركضة على رجله العوجاء! رأسه ينخلع على صدره، وصندوقته ترقص على خصره، والحلويات يختلط بعضها ببعض وتتحطّم وتسيل، وتصير أشبه ما يكون بالوحل.

ذات يوم أطبق الغلمان الأشرار عليه في حيّ الكراويا وأخذوا يشدّون بشعره، وأمسكه أحدهم برجله – إيّاها – يدقّها بحجر ويسخر منه:

- يا أعرج! يا أعرج!

وإذا بصائح يصيح بهم مهدّدًا فيهربون كلّ واحد إلى صوب. فرفع الأعرج وجهه عن التراب متفقدًّا صندوقته، فإذا به أمام كريم الحلوانيّ صاحب الدكّان الذي يتبضّع من عنده كلّ صباح. أحسّ بقلبه يكبر، ومسح دموعه، ونفض ثيابه من الغبار وقال :

- كلّ يوم يلحقون بي ويضربونني ويأكلون الحلويات.

وقام إلى الصندوقة يتناولها، ويلتقط الحلويات عن الأرض وقد تبعثرت هنا وهناك ولبست ثوبًا من الأقذار. فقال له كريم عاقدًا أجفانه:

- أتركها ، سأعطيك غيرها.

فرفع إليه الأعرج عينين كأنّهما تسألان: ولكنّ ثمنها؟ فقال له كريم:

- قم. ما عليك. أعطيك أربع دزّينات كاملة ولا آخذ منك قرشًا. وسأعّلمك كيف تتغلّب على هؤلاء الزعران.

كان كريم من القبضايات المشهورين في الحيّ –يقال إنّ في عنقه ثلاثة قتلى– وأبناء الحيّ يتناقلون أخباره، ويهابون جانبه، ويشدّون أنفسهم بظهره في الملمّات.

وبالرغم من تقدّمه في السنّ –خمسون سنة وأكثر– كان لا يزال محمّر الوجه بالعافية، لامع العينين بالبطولة، معقوف الشاربين بأناقة وإباء. إلّا أنّه كان قد ترك منذ زمان كار المراجل وانقطع إلى تجارته.

سار الأعرج وراء كريم إلى محطّة اليسوعيّة، إلى الترامواي. كانت تلك المّرة الأولى التي يركب فيها الأعرج الترامواي. لذلك كاد ينسى مصيبته في التفرّج على مقاعد الحافلة، وعلى قاطع التذاكر يدور بينها، وعلى التذكرة التي قطعها له. وكان يحسّ أنّ هذه الدرجة التي صعدها من الأرض إلى الترامواي قد نقلته من دنيا إلى دنيا.

ولمّا ترجّل كريم على محطّة الناصرة قاد الأعرج بيده إلى الدكّان، وأدخله إلى القسم الخلفيّ منه وقال له :

- ألا تعرف البوكس؟

- لا !

- اجمع كفّك اليمنى.

- ها !

فتناول كريم كفّه وسوّاها له وقال :

- إذا جاء اليك الأولاد مرّة أخرى فاجمع كفّك هكذا واضربهم. وصوّب الضربة إلى الذقن أو الأنف أو الخصر.

اضربني لأرى !

فصعّد الأعرج إلى كريم نظرة حبّية كأنه يقول: كيف أضربك؟

- اضرب، اضرب ولا تخف !

فجمع الأعرج كفّه وهمّ، ولكنّ كريم تلقّى الضربة بيده وقال له :

- عليك أن تتمرّن. اذهب إلى هذا الكيس واعمل فيه البوكس !

وكان هناك كيس مملؤ بالفحم، فأخذ الأعرج يوسعه ضربًا بيديه حتىّ اسودّتا وكلّتا. حينئذ قام كريم إليه وربّت على كتفه قائلًا :

– تأتي كلّ يوم إلى هنا وتتمرّن. وبعد أسبوع ستغلب أكبر أزعر في السوق.

شعر الأعرج بأنّ أعجوبة من السماء أرسلت إليه هذا المنقذ، فشرع يتردّد عليه. وفي الصباح، حين يأتي ليملأ صندوقته، يمكث عنده ساعة ويذهب إلى كيس الفحم ويتمرّن على البوكس بفرح يغمر قلبه، فتلمع عيناه، خلال غبار الفحم المتطاير، لمعانًا بسامًا.

وقد يحدث أن تتخدّش كفّاه ويسيل منهما الدم، فلا يحفل ويستمّر في اللكم، وكريم أمامه يدّخن سيكارته مزهوًّا.

- لمّا كنت في عمرك كنت أكسّر أكبر رأس في رفاقي، وكانت الناصرة من أوّلها إلى آخرها تقول: فلان !

فينظر إليه الأعرج ويبلع بريقه متسائلًا: متى أصير هكذا؟

وتوثّقت العلاقة بين الصديقين على تباعد السنّ. ولكنّ الصبي لم يبح لكريم بالسرّ الذي يؤلّف مأساة حياته. لم يقل له أنّ عمّه يضربه كلّ يوم بلا شفقة. بل كان يقول، تحت سحر العبودية، وحسب ما أوصاه عمّه، إنّه يحنو عليه حنّو الوالد على ولده.

ولمّا سأله كريم عن أبيه وأمه قال :

- لا أعرفهما. يقول لي عمّي إنّهما تركاني طفلًا. أتعرفهما أنت؟

ابتسم كريم وأجاب هازًّا رأسه :

- كلاّ، يا ابني، لا أعرفهما.

* * * *

ذات مساء تأخّر الأعرج في سوق المعرض. كان لا يزال في صندوقته ثلاث قطع. فأخذ يطوف بها من رصيف إلى رصيف، بين أخلاط الناس المزدحمين في السوق، مناديًا: كاتو! كاتو !

وإذا بثلاثة غلمان حفاة، مبعثري الشعور، بارزي الصدور من شقوق قمصانهم المهلهلة، يهجمون عليه وقد عرفوه. فتراجع إلى جدار وأسند ظهره إليه ووضع الصندوقة إلى جانبه، وشمّر عن ساعديه، ونفخ بمنخريه وصاح بهم :

- تعالوا! اقتربوا من هنا !

فقهقه الصبيان هزءًا. أمّا هو الأعرج نفسه؟ أمّا هو الذي يسلبونه كلّ يوم ويشبعونه ضربًا بعد أن يشبعوا من كاتوياته؟ ها! ها! ها! ها!... ودنا زعيمهم ذو القنباز المشقوق بين الفخذين. دنا ببطء، برباطة جأش، وهمّ بإدخال يده في الصندوقة. فما كان من الأعرج إلاّ أن جمع كفّه اليمنى وأمسك باليسرى ناصية خصمه ثمّ ضربه بوكسًا على يافوخه فانطرح تحته على الأرض. وقد سبق رأسه رجليه. فهجم الآخران، فأثبت الأعرج رجله الصحيحة على بلاط الرصيف وانهال عليهما، لهذا ضربة على أنفه، ولذاك ضربة على خصيتيه -كما علّمه كريم – وأعاد الكرّة، فلم يلبثوا أن تفّرقوا وهو ينظر إليهم ولا يصدّق !

حينئذ رفع أنفه في الفضاء، ولبث دقيقة طويلة سكران بالظفر، جامدًا، إلّا دمه يفور في أعصابه ويتمشّى في جسمه من أمّ رأسه إلى أخمص قدميه. دم جديد قويّ، كأنّ الله خلق الأعرج خلقة ثانية.

ثمّ انحنى على الصندوقة فتناول قطعة كاتو. ثمّ تناول الثانية والثالثة، والتهمها واحدة وراء واحدة، يكافىء نفسه. ومشى يبحث عن الغلمان يمينًا وشمالًا، وخلفًا وقدّامًا، ليريهم كيف تؤخذ الثارات !

* * * *

الله من شتاء بيروت! تنصبّ الأمطار ساعات دون انقطاع، كأنّ الله يفتح أبواب السماء ثمّ ينسى إقفالها !

وقد مضى موعد الرجوع إلى الكوخ، والأعرج ينتظر على ساحة البرج قابعًا تحت رفرف دكّان، والسيّارات تمرّ براكبيها ملفّعين بالثياب الصوفيّة الدافئة، وترسل إليه رشاش الوحول – شتائم الغنى إلى الفقر! – فتصبغ وجهه وتنفذ إلى قطع الحلوى الباقية في صندوقته.

أخيرًا ملّ الانتظار وحدّثته نفسه، سرًّا، بالصعود إلى الترامواي الذي جاء فوقف على المحطّة بالقرب منه. وكان لم يركبه إلّا مرّة واحدة حينما أنقذه كريم من الصبيان المتآمرين عليه.

نهض، وحمل صندوقته، وقدّم رجله العوجاء. ولكنّه عاد ففكّر بعمّه إبراهيم. يجب أن يعطيه الحساب مضبوطًا. وإذا نقص ماذا يقول له؟ أيقول له إنّه ركب الترامواي؟ وأوشك الأعرج أن يضحك من نفسه. وسار الترامواي مسرعا، وهو يرافقه بعينيه حتّى توارى عنه في المنعطف. ثمّ اقشعّر بدنه من البرد، ووصلت القشعريرة إلى رجليه الحافيتين، فأخذ ينظر إليهما وقد غسل المطر منهما جانبًا، وأحدث في الجانب الآخر سواقي صغيرة.

وجاء الترامواي الثاني، فتمتم الأعرج بشتيمة متحدّيًا الكون! وصعد شادًّا صندوقته تحت إبطه. ولكنّ قاطع التذاكر ما كاد يراه في قذارته حتّى دفعه دفعة، فوقع في الشارع، وجاء رأسه في بركة وسخة، ودخل الماء الى فمه وأذنيه، ومرّت سيّارة مستعجلة على صندوقته فحطّمتها شرّ تحطيم.

ومرّ الترامواي بأزيزه، ومرّت السيّارة بهديرها، وقام الأعرج كتلة من الأسمال والأوحال... ولكنّه لم يبك. لم يحسّ بالألم. مسح وجهه بطرف قمبازه، ورفس أشلاء الصندوقة برجله العوجاء، ومشى.

هذه المرّة، رأى العمّ إبراهيم من الأعرج ما لم يكن له به عهد. فجنّ جنونه وانكبّ عليه بالعصا يضربه دون نظام أينما جاءت الضربة، ودون حساب على قروش ولا قطع كاتو. ولم يعدّ الأعرج العصيّ وقد تجاوزت

العدّ. وظلّ تحت الضرب لا يتجعّد له وجه، ولا تنزل له دمعة. مع أنّ العصا جاءت على عينه اليسرى وأورمتها فثقلت كقطعة من رصاص.

واعترف الصبي بكلّ شيء: بأنّه ركب التراموای، وحطّمت السّيارة صندوقته، وأكل ثلاث قطع كاتو. وسيأكل كلّ يوم مثلها وأكثر! حتّى مزّق العمّ إبراهيم ثيابه، وودّ لو يستطيع نهش هذا الأعرج الملعون بأسنانه.

وكان العمّ إبراهيم يسبّ الخالق لأنّه بلاه بالمرض، وهو يزحف في الكوخ على قفاه، غارزًا يديه في الأرض، لاحقًا بالأعرج من جانب إلى جانب، كالقطّة وراء فأرة صغيرة. حتّى تعب أخيرًا واستلقى في زاويته...

* * * *

مرّت ساعة، ساعتان، والأعرج لا يغمض له جفن. وأبى تلك الليلة أن يطفيء القنديل. كان ينظر على ضوئه الشاحب إلى أقسام الكوخ كأنّه يتعرّف اليه لأوّل مرّة. ثمّ سمع غطيطًا فرفع رأسه... كان العمّ إبراهيم غارقًا في النوم، والضوء يتماوج على حاجبيه الكثيفين، ولحيته الكثّة، وأنفه الطويل، وشاربيه المسترخيين، وذقنه الملتوي. ورأى فمه مفتوحًا، منفرج الشفتين.

وكأنّ انفراجهما حفّز الأعرج، فأزاح الغطاء وركع على فراشه يريد الوقوف... يريد الهرب... بل يريد الانقضاض على هذا العمّ الوحش بالبوكس – كما علّمه كريم– وبالعصا المعلّقة هنا. العصا التي مضى عليها سنون وهي تأكل من جلده ولا تشبع! هذه العصا نفسها يجب أن ترتدّ على الذي تعّود حملها عليه: على قفاه، وذراعيه، وكتفيه، ويافوخه.

وإنّ الأعرج ليهمّ، إذا بالعمّ إبراهيم يوقف غطيطه فجأة وينقلب على جنبه. فصعق الصبي في مكانه، وخيّل إليه أنّ عمّه مطّلع على ما يجول في دماغه، وأنّه يفتح عينيه، وأنّ العصا تترك الحائط من تلقاء نفسها وتمشي إليه في فراشه...

_ يا أعرج الملعون!

يا أعرج الملعون! سمع الأعرج الصرخة تطنّ في أذنيه فانحلّت عزيمته – عاد الى ثيابه العبد – وأرخى نفسه.

حينئذ دخل من شقوق الكوخ برق هائل ملأه، ثم قصف الرعد قصفات متتابعة، مزمجرة، بعثت في جسمه رعشة مثّلجة، فوطّن نفسه على النوم. ولكنّ عينيه وقعتا فجأة على صورة رأس الهندي –ماركة احدى شركات الكاز– فوق رأس العمّ إبراهيم. صورة ما تزال على إحدى خشبات الكوخ جديدة، بارزة، كأنّها محفورة منذ يومين، والريش النافر يحيط بذلك الرأس هالة مخيفة. فلبث الأعرج محدّقًا إليها على ضوء القنديل المتمايل فوق أمتعة الكوخ العتيقة وعلى حيطانه، ثمّ قال في نفسه: "كم هو قويّ هذا الهندي !"

وقام على الأثر من فراشه كالآلة، لا يخاف ولا يفكّر بشيء. ذهب توًّا إلى العصا المعلّقة فوق رأس عمّه وتناولها بيده، وقبضها جيّدًا، ثمّ أخذ ينظر إلى شاربي العمّ إبراهيم يصعدان ويهبطان، ويصغي إلى غطيطه

يشتّد ويخفت. ثمّ كشّر عن أسنانه كابن النمر، ورفع العصا إلى فوق، بكلتا يديه، وانهال على وجه العمّ إبراهيم: على شاربيه ضربة، وأتبعها بالثانية والثالثة على الجبين والذقن، قبل أن يستطيع عمّه صياحًا. ولمّا أفاق العمّ إبراهيم عاجله الأعرج بضربة رابعة وخامسة وسادسة... دون حساب أيضًا.

وكان العمّ إبراهيم يعوي تحت العصيّ المتراكمة عليه عواء الكلب أصابه الصيّاد خطأ، ويتململ، ويجدّف، ويحاول النهوض، ولكن عبثًا. إنّه كسيح. وكان يلحق زاحفًا بالأعرج من زاوية إلى زاوية لعلّه ينتزع العصا منه، فيناوله حاملها الضربة على يده، وعلى رأسه، وعلى بطنه، فيشتدّ عواؤه، ويختلط بعصفات الرعد في الخارج وقهقهات تنكات الكاز على سطح الكوخ في تلك الليلة الليلاء.

وحدث أنّ العصا لطمت القنديل بينما كان الأعرج يرفعها على العمّ إبراهيم متراجعًا من أمامه، فتحطّمت بقايا زجاجته، وانقلب القنديل على الفراش فاندلق زيته، فهّبت النار دفعة واحدة ، ونشرت في الكوخ المظلم ضوءًا كبيرًا. فكان الأعرج أسرع من بروق تلك الليلة. ركض إلى الباب وفتحه وخرج، ثمّ حاول إغلاقه، فإذا بالعمّ ابراهيم يهرب من الحريق ويهجم على الباب فيمسكه من حافته، وهو يصرخ مستغيثًا، لأنّ الكوخ كان قد تحّول إلى أتون. وأخذ الصبي يشدّ من جهة، وعمّه يشدّ من جهة، ثمّ انحنى الأعرج على اليدين الضخمتين الممسكتين بحافّة الباب، وعضّهما عضّة ذاق بها طعم الدم، فارتختا، فأقفل الباب بالمفتاح جيّدًا، وابتعد عن النار وكان لهيبها قد وصل إليه، ودخانها في أنفه.

وكان بالقرب من الكوخ شجرة من الأزدرخت قديمة العهد، فوقف تحتها يتّقي المطر المتساقط، وينظر إلى الكوخ تتداعى جدرانه، وتندلع منه ألسنة النيران، وتنقضّ تنكات الكاز بعضها فوق بعض بقرقعة شديدة

وأرهف الأعرج أذنيه ليسمع صوت العمّ إبراهيم. فإذا صوت مثل خوار البقر بدأ قويًّا قويًّا... ثمّ أخذ يضعف شيئا فشيئا، ثمّ عاد إلى الخوار أقوى منه قبلًا، ثمّ هوى الكوخ هويا واحدا، محدثا ضجّة ارتعدت لها فرائص الأعرج بالرغم من شجاعته وهول ما كان يحسّ به من نشوة الانتقام.

حينئذ مشى إلى الشارع، وهو يرسل بين الخطوة والخطوة نظرة إلى الوراء ونظرة إلى الأمام، أمّا الكوخ فقد صار رمادًا بمن فيه... إلّا بعض جمرات تطفئها الأمطار على مهل.

وأمّا الشارع فمعفر، ليس فيه إلّا ظلّ الأعرج يلقيه المصباح الكهربائيّ المعلّق على محطة الترامواي.

ظلّ طويل، مستقيم، كلّما تقدّم الأعرج في المشي زاد في طوله واستقامته، واختفت منه العرجة... حتى خيّل إليه أنّ أوّله عند رجله العوجاء، وآخره معلّق بتلك النجمة المرتجفة التي انقشعت عنها الغيوم في أفق السماء.

****

الإعاقة: مصطلح اجتماعيّ يُغطّي العاهات والقيود على النشاط والتكيّف في المجتمع الإنسانيّ. فالعاهة مشكلة في وظيفة الجسم وهيكله لتحدّ من نشاط صاحبها فلا يستطيع أن يواجه المجتمع في حين يعجز عن

تنفيذ مهامه وأعماله، وبالتالي فالإعاقة هي ظاهرة معقّدة تعكس التفاعل بين ملامح جسم الشخص الجسدية والنفسية وملامح المجتمع بكل مكوّناته.

كوننا ننظر إلى المعاقين نظرة دونيّة هذا يعني أنّنا ما زلنا نعيش في تخلّف حضاري، نفتخر بقدراتنا الجسديّة والفكريّة، متناسين أنّ لهم الحقّ الكامل في العيش الكريم.

وهذا يسوع عليه السلام يقول: "بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً". "دعوا الأطفال يأتون إليّ".

<u>نظرة الأديان السماويّة للمعاقين ولذوي العاهات:</u>

-الديانة اليهوديّة:

أشارت إلى عدم قتلهم لأنهم هبة من الله يجب المحافظة عليهم والإحسان لهم، والذود عنهم لأنّهم من بني آدم.

الديانة المسيحيّة:

نظرت إليهم بشفقة ورحمة لأنّهم في رعاية الله فالمعاق مخلوق على صورة الله، وكونه معاقًا لا يشوّه صورة الله فيه. في العهد القديم نجد قصصًا كثيرة عن أمثال المعاقين جسديًّا، منهم موسى عليه السلام، كان يعاني من ثقل اللسان ولكنّ الله اختاره ليحدّث الشعب بكلامه ومنحه سلطانًا ليصنع العجائب. وقد وردت قصّة النبيّ أرميا "الولد الخجول" إذ لم يكن بمقدوره أن يعبّر عن ما يريد فاختاره الله ليوصل كلامه لشعبه "ثم مدّ الربّ يده ولمس فمي وقال لي: ها أنا ذا جعلت كلامي في فمك".

الديانة الإسلاميّة:

قال تعالى في محكم آياته:

"ولقد كرّمنا بني آدم".

"إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب"

"ليس على الأعمى حرج وليس على الأعرج حرج ولا على المريض حرج"

"لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم"

قيم تربويّة:

-للمعاق حقّ مكتسب في الحصول على الاحترام.

-الحقّ في الاستفادة من الحقوق المدنيّة والاجتماعيّة، والانخراط في الحياة العمليّة بدون تفرقة أو نظرة دونيّة وله الحقّ في الحياة الكريمة.

-حقّ التمتّع في المشاركة والنشاطات الاجتماعية بموجب القوانين المرعية والديانات السماوية.

أمثلة من مشاهير المعاقين:

-الإمام الترمذيّ: بالرغم من كونه أعمى فقد أخرج السنن المشهورة وأحد أصحاب الكتب في جمع الأحاديث.

- الأحنف بن قيس: كان يعاني من اعوجاج في رجله، اشتهر في الحلم والسؤدد.

-موسى بن نُصير: كان أعرجا ومن أعظم قادة الفاتحين المسلمين.

-بشار بن برد: أعمى أُصيب بالجدري، من مشاهير شعراء الغزل.

-أبو العلاء المعري، وعميد الأدب العربي طه حسين: شاعران أعميان.

-أبو الأسود الدؤلي: أعرج وأصلع، من أذكى نحويّي العرب.

-الجاحظ: كان يعاني من شلل نصفي ومن داء النقرس.

-لويس برايل: كفيف، اخترع طريقة برايل للمكفوفين.

-ستيفن هوكنغ: مُقعد، أبكم، سُمّي بآنشتاين القرن العشرين، مكتشف نظرية تاريخ الكون وعمل محاضرًا في جامعة كمبردج.

***الأهداف التعليميّة:**

-التعرّف على أبرز مقوّمات القصّة القصيرة كفنّ أدبيّ له مميّزاته الخاصّة (الشخصيّات، زاوية السرد، الفكرة المحوريّة...).
-التعرّف على الكاتب والأديب، وكيفية انعكاس أسلوبه في القصّة (اللغة، الاسلوب، الواقعية والمضمون).
-الإثراء اللغويّ والتعرّف على المهارات الكتابيّة، وتذوّق المعاني والمفردات الواردة في القصة (والتي تتعلّق في الشخصيّة المحوريّة).
-تنمية التعبير الشفويّ والكتابيّ بنوعيه: الوظيفيّ والإبداعيّ.

***الأهداف التربويّة:**

-تنمية الذائقة الادبية من خلال القراءة والرغبة في اكساب التلميذ جماليات الأدب المقروء مع القدرة على تمثيل المواقف من المقاطع المقروءة.

-إكساب الطلاب وتعويدهم على اتّخاذ موقف ما مدروس من خلال طرح قضية اجتماعية كالتي نحن بصددها.
-إكساب الطلاب وتعويدهم على النقد البنّاء من خلال سلوك الآخرين الخاطئ وتبنّي الموقف الآخر.
-أن نكسب الطلاب روح التعاطف والتضامن مع الآخرين في مواقفهم، خاصة اولئك المعوزين وذوي العاهات والإعاقات البدنية.
-أن يتقبّل الطالب الآخر المختلف تقبّلًا إيجابيًّا، لا من خلال مظهره، وإنّما من خلال الحقّ والواجب عليه كإنسان يعيش حياة كريمة.
-تنمية وغرس الخصال والسلوكيات الإيجابية ومكارم الأخلاق في نفوس طلابنا وتنقيتهم من الغث واتّباعهم السمين، من خلال إعطاء نماذج عينيّة غير التي وردت في القصة.
- تنمية الروح المعنويّة والاحترام لذوي العاهات في المجتمع الإنسانيّ ومن حقّهم أن يحيَوا بكرامة.
- مناصرة الضعيف وعدم الاستقراء بالقويّ المتسلّط المتجبّر.

التمهيد لعرض القصّة:

-التحضير والقراءة المتأنّية في البيت مع حلّ الوظيفة التمهيديّة.
-قراءة بعض الفقرات في الصفّ ثمّ مناقشتها من خلال توجيه الأسئلة التدريجية بداية من العنوان على نحو: ماذا يوحي لك العنوان؟ هل تعتقد أنّ الأعرج يمكنه أن يكون فعّالًا في مجتمعه ؟ ...

أسئلة الفعاليّات:

-ما الذي يتيحه لك عنوان القصّة من معرفة مسبقة في المضمون؟
-ما هو الموضوع الاجتماعيّ الذي يعكسه الكاتب في القصّة؟
-هل تعتقد أنّ الأعرج في القصّة كان بإمكانه أن ينفر من تسلّط الناس عليه وقهره؟
-لو طُلب منك أن ترسم صورة للأعرج خليل، ما هي الملامح التي كنت تبرزها؟
-صف بلغتك، متسوّلًا ذا عاهة على الرصيف.
-كيف تستطيع أن تنتقد المجتمع من خلال نظرتهم السلبيّة للأعرج؟
-اذكر أهمّ الصفات الجسديّة والنفسيّة التي خلعها الكاتب على الأعرج.
-لماذا لم يُبرز موقفًا إنسانيًّا واحدا للمجتمع (عدا كريم الحلواني)؟
-لو كنت شاهدًا على معاناة الأعرج خليل، ماذا كنت تفعل للتخفيف عن معاناته؟
- ما الذي أراد الكاتب أن يوصله للقارئ؟ وهل وُفّق في اختياره للعنوان؟
-اذكر موقفًا واحدًا سلبيًّا من المجتمع أو "الحكومة" تجاه الصبيّ الأعرج؟
-ما رأيك في تصرّف كريم الحلوانيّ (رغم أنّه قاتل في ما مضى)؟
-كيف ظهرت لك انسانية كريم الحلوانيّ تجاه الصبيّ الأعرج، تحدّث عن جوانب شخصيّته؟
-كيف كانت معاملة كلّ من: الصبية في شوارع بيروت، العمّ إبراهيم، رجال الشرطة؟ وجّه إليهم كلمة تدافع بها عن حقّ الصبيّ الأعرج في العيش الكريم.
- ما هو موقفك أنت من ذوي العاهات والإعاقات في مجتمعنا اليوم؟
-ما هي النتيجة الحتميّة للقصّة؟ وهل تؤيّد تلك النهاية؟

-اكتب كلمة للمسؤولين في السلطة المحلّيّة تحثّهم فيها على عناية ذوي الاحتياجات الخاصّة والإعاقات الجسديّة.

إعداد وتقديم:
أ.محمود وتد